سمات الأسلوب النبوى

(أ) مقدمة

أشرنا فيما تقدم من الفصول إلى بعض سمات البيان النبوى ، وفق الأبواب التى خصصت لدراسة فروع محددة من أدبه عليه الصلاة والسلام.

ففى باب: محمد الخطيب ، جعلنا من سمات الخطبة الغالية فى أدبه : الإيجاز ، وقوة الإقناع ووضوح العبارة ، وأشبعنا كل سمة منها بالتدليل والتمثيل.

وفى باب: الرسائل والوثائق ، جعلنا من سماتها الدقة الموجزة ومراعاة مقتضى الحال ، والوضوح الصريح مع ترك اللغو والفضول.

وفى باب: الأقصوصة ، رأينا اعتماد الرسول على الوحدة الفنية ، والهدف الواضح ، واللفظ الموحى الموجز مع الاستثارة والتشويق.

وفى باب: محمد الداعية ، رأينا أدب الدعوة يعتمد على التكرار المعنوى ولياقة العرض ، واستثارة الوجدان الإنسانى بتقديم ما يشبعه ويقنعه ويرضيه.

وذلك كله لا يغنى عن كتابة فصل خاص بتشريح : سمات الأدب المحمدى ، على نحو كاشف بحيث تكون السمات السابقة جداول متفرعة من نهر واسع ، له خصائصه العامة فى البقاء والصفاء والتدفق والعمق ، وإن شاركته فروعها المختلفة كثيرًا من هذه الخصائص ، إلا أنه لها أجمع وعليها أدل.

وقد ألف بعض النقاد ، إذ يتحدثون فى معرض الحكم الأدبى على الآثار البيانية أن يرسلوا كلمات فضفاضة واسعة تتكرر فى كل نقد أدبى ، من مثل قوة الجزالة ومتانة السبك وشدة الأسر ، أو مثل إشراق اللفظ وحلاوة الوصف وبديع الانسجام ، أو مثل عمق الفكرة ودقة المعنى وسعة النظرة ، مما يطلق إطلاقًا دون

تحديد ، حتى ليجوز فى مذهبهم المتساهل أن ينقل ما يقال عن أديب إلى أديب آخر ببعض التسامح ، إذ إن هذا الثوب الفضفاض فى اعتقادهم مما يجوز أن يرتديه أكثر الناس ، ولا عليهم إذا جاء الثوب لائقًا أو غير لائق ، وأظن أن تقدم النقد المعاصر لا يسمح لنا أن نتورط فيما تورط فيه المتساهلون، فلابد من تشريح دقيق لكل حكم، وتشخيص مكتمل لكل رأى حتى يطمئن القارئ المثقف إلى صحة الموازين.

ونحن نعلم أن عناصر الأسلوب كما حددها النقد المعاصر ثلاثة هى: الفكرة والصورة والعبارة ، أما العاطفة فقاسم مشترك بينها ، إذ إنها تتسرب إلى الفكرة فتذهب من جفافها ، وتلقى مزيداً من الضوء عليها فتظهر فى سياق واضح لا غموض به وتأتى إلى الصورة فتجعلها وافية بالغرض ، مجملة له ، وتبعد عنها كل تنافر فى الذوق ، أو ثقل فى اللون والظل ، فإذا تسربت العاطفة إلى العبارة ترقرقت فى ألفاظها فصارت سلسة مواتية وفى تراكيبها فأصبحت متآخية متماسكة ، وسبيلنا الآن أن نعرض إلى كل عنصر من هذه الثلاثة بالشرح والتمثيل.

* * *

(ب) الأفكار فى الحديث الشريف

تتصف الأفكار البليغة عادة بالقوة والجدة والتحديد والتسلسل ، فإذا عرضت هذه الأوصاف الجيدة على بيان محمد ﷺ فماذا أنت واجد؟

أما قوة أفكاره: فمما لا يرتاب فيه إلا خصومه ، لأن الذى ينقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لابد أن يكون ذا فكر قوى غلاب ، وإذا كان البيان أكبر وسائله فى الإقناع والتأثير ، فلابد أن تكون الأفكار التى يصورها هذا البيان من القوة بحيث ترج العقائد المتأصلة فى النفوس رجًا عنيفًا بل تحطمها تحطيمًا لتبنى مكانها عقائد أخرى تكون على أتم ما يرجى لها من التأصل والرسوخ. يعرف هذا كل عاقل حصيف ، وإن كان أجنبيًّا عن العربية وعن أدبها ، فمتى قلت لأى مفكر فى شتى بلاد العالم ، إن رجلاً قاد الملايين بالمنطق المقنع من اعتقاد إلى اعتقاد مضاد ، فإنه سيقول لك دون حاجة إلى أمثلة وشواهد: لاشك أن هذا القائد النافذ مفكر دقيق !

أجل.. كان محمد صاحب فكر قوى متسع شامل ، فى وقت كان فيه مقاول المنابر بالجزيرة العربية لا يكادون يخرجون عن واقعهم الفنى المحدود ، فكل خطيب يجمع الناس ليترجم عن مشاعرهم فيما يقع من مجريات الحوادث والأحوال، وإذا ارتفع عن مستواهم قليلاً فإنه ارتفاع الطائر فى قفص مربع لا يتجاوز طوله ثلاثة أمتار ، فمهما اشرأب إلى السماء فهو مقيد بسقف لا يلبث أن يهوى إلى الأرض حين يصطدم به ، أما محمد ﷺ فمنذ تسنم منبر الدعوة ، وهو يحلق بأمته فى أفق لا يرتفع معه حيث يحلق ، وما كان هذا الارتفاع الشاهق إلا هتافًا بالمثل الإسلامية التى دعا إليها ، ليعيد إلى الإنسانية كرامتها ، وينأى بها عن حضيض الخرافة ، والفسق ، والوأد ، وعبادة الأوثان.

نطالع أفكار محمد التشريعية ، وأهدافه الخلقية ، وأحاديثه الإنسانية وأخباره الغيبية ، فنجد ما يؤلف فى عصره ولا يعهد فى قومه ، وإذا كان للتشريع ، والآداب الخلقية ، والأحاديث الغيبية أمكنتها الفسيحة فى كتب العلماء والمحدثين ، فإن المحلل الأدبى ينظر إليها من الوجهة الفنية فيجدها من ناحية الفكرة ذات قوة غالبة نفاذة تنبئ عن عقلية دقيقة واعية ، ومن هنا كثرت الحكمة فى البيان النبوى ، وتسابق البلغاء إلى اقتناصها ، لأن الحكمة لا تأتى إلا عن تجربة شاملة وفكر دقيق ، وفى كتاب «أدب الدنيا والدين» - مثلاً - (للماوردى) عشرات من الأحاديث النبوية متفرقة فى أكثر الفصول تصور الحكمة النبوية فى سياقها الرصين ، وكثرة الحكم المحمدية العاقلة فى هذا الكتاب وأمثاله ينبىء عن تلهف علماء الأخلاق والآداب على روائع الحكم الغالية عند عقلاء المفكرين ، لتكون موضع الاستدلال والتأييد.

على أن روعة هذه الأفكار تزيد قوةً وجلاءً إذا نظر الناقد إلى سياقها وطريقة عرضها ، إذ إننا نجد نفرًا من أدباء الفكرة يحاولون الاستعلاء فى أسلوبهم فيغمضون ويدقون ، ويرون أن من واجب القارئ أن يرتفع إليهم مندفعين بشعور من الكبرياء يوهمهم أنهم فى مستوى أرفع ، وقد كافأهم القراء بالقطيعة والانصراف ، حتى اضطروا إلى التراجع عن قلق وضيق ، أما الفكرة الدقيقة لدى محمد ، فتأتى فى مساق واضح سهل ، وهى على دقتها النافذة لا تتعدى فى كثير من أحوالها حديثًا سبق فى مجلس على ملأ من الناس ففهمه الجميع ، ولنا أن ننظر فى مجال التطبيق الأدبى إلى مقال مثل قوله ﷺ عن النعمان بن بشير:

«إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام: كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك

حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» [١] .

أسطر قليلة تعرِض عدة قضايا متنوعة يجمعها رابط دقيق ، فوضوح الحواجز بين الحلال والحرام لا يمنع وجود مشتبهات توجب اليقظة والحذر ، وتدفع إلى الاحتراز إذ إن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا تصوير محسوس لأمر عقلى يزيد به وضوحًا وجلاء.. أما الحمى المحظور فمحارم الله ، وأما القلب فهو مصدر الصلاح إذا بعد عن المحارم أو الفساد إذا وقع فيها.. فما رأى القارئ فى قوة هذه الأفكار وصوابها؟ أليست تحمل الطابع العام لبيان الرسول ، وهو الصدق الموجز دون تزيد أو فضول.

وهذا الحديث الثانى: «تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع» [٢] .

كم من الصور الإنسانية أومأ إليها هذا الأثر الشريف ، عبد الدينار يرضى إذا أعطى ويسخط إذا منع ، والعبد المجاهد يأخذ بعنان فرسه مغبرة قدماه أشعث رأسه ، والعبد المتواضع فى أعين الناس يستأذن ويشفع فلا يؤذن له ولا يشفع ، وهو عند الله قوى مكين ، إن تجارب محمد مع البشر قد أسعفته بهذه الصور وأمثالها ، فهو يمنح من نبع فى نفسه لا يغيض ، على أنه يكتفى بالإيماء اللامح إلا الإسهاب الفاضح ، ليدعو السامعين إلى التفكير ، وتلك إحدى مزايا الإيجاز.

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢١٨.

(٢) « التاج » ، ج ١ ، ص ٢١٤.

وهذا الحديث الثالث :

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» (١) .

أى فكرة صائبة مجربة ، يسجلها هذا القول الحكيم ، العلم لا ينزع انتزاعًا بل يفنى بموت العلماء ، ومتى ذهبوا تصدر الجاهل فأفتى فضل وأضل ، دع الزمن يمر، واقرأ هذا القول على جيل بعد جيل ، فإنك واجد من يشد على يديك بالتأييد ، لأن الفكرة صائبة يعرفها السامع الذكى فيمن حوله من الناس ، وقد لمست مكمن الداء لتهدى إلى الطريق القويم متى تقال.

أما جدة الأفكار النبوية فهى أيضًا من المسلمات منطقيًّا إذ إن كل نبى يأتى بالجديد لا محالة ، وأذكر أننا قلنا فى باب محمد الداعية : إن التجاء الداعية الأعظم إلى التكرار والترديد لترسخ مبادئه وتتأصل تعاليمه ، كان يلزمه أن يجدد فى الصورة والإطار حتى يظل لحديثه رونقه الخالب ، وقد ضربنا بعض الأمثلة من بيانه شواهد على التكرار المعنوى حين يتحد الهدف والغرض ، ويتنوع اللفظ والتركيب ، فمحمد ﷺ حين يتحدث عن الغلول مثلا فى الحديث التالى:

يشقق القول ويفرعه بما يجعل كل معنى من معانيه يحمل من الجدة الطريقة ما يذكى فى النفوس شعورًا حارًّا يتقد ، وذلك حين قام ذات مرة – كما روى أبو هريرة – فذكر الغلول فعظمه ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله : « أغشى ، فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء قوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة ، فيقول: يا رسول الله أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول: يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك

(١) « هدية البارى » ، ج ١ ، ص ٢١٤.

شيئًا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول: يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ، فيقول: يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك» (١) .

لنعرف أولاً أن قول أبى هريرة فى مبدأ الحديث: قام فينا رسول الله يدل على أنه كان يخطب ، وللخطابة سمتها الواضح من التكرار ، وضرب الأمثلة بما يهيج الانفعال ، ويذكى الإحساس ، فليس المجال مجال إيجاز دقيق يكتفى فيه باللمح بل مقام استعراض لأحوال مهمة من مشاهد الغلول ، ولكل مشهد صورة تختلف عن سابقه ولاحقه. هذا الاختلاف هو موضع الطرافة فى الفكرة ، فلو أن الرسول قال: إن الغلول حرام ، وإن الإنسان سيحاسب يوم القيامة عما غل ، ثم دعا إلى تقوى الله ومراقبته ، لفاتته الجدة الطريفة فى تعداد مشاهد تبعث التأثير الآخذ من منظر صارخ للهيف من ذوى الغلول ، وقد جثم على رقبته بعير له رغاء ، أو فرس له حمحمة ، أو شاة لها رغاء ، أو عبد له صياح أو ذهب يثقل بوزنه ، هذه الجدة قد أكدت الفكرة وجسمتها تجسيمًا حتى لتلمس باليد وترى بالنظر. وتلك بعض منافذ الإبداع فى بيان محمد.

لننتقل إلى شاهد آخر لهذه الطرافة الجديدة :

لقد كسفت الشمس ذات يوم ، فوقف رسول الله يصلى صلاة الكسوف ، متجهًا إلى ربه فبصر به أصحابه يتباعد قليلاً فى الصلاة عن مكانه.. ثم يعود إليه ثانية قبل أن يختم صلاته ، فسئل عن ذلك فقال فيما رواه مسلم :

«ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته فى صلاتى هذه ، لقد جيء بالنار ، وذلكم حين رأيتمونى تأخرت مخافة أن يصيبنى من لفحها ، وحتى رأيت فيها صاحب

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٥٧.

المحجن يجر قصبه فى النار كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن له قال : إنما تعلق بمحجنى ، وإن غفل عنه ذهب به ، وحتى رأيت صاحبة الهرة التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت جوعًا ، ثم جىء بالجنة وذلكم حين رأيتمونى تقدمت حتى قمت فى مقامى ، ولقد مددت يدى وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه ، ثم بدا لى ألا أفعل ، فما من شىء توعدونه إلا رأيته فى صلاتى هذه» (١) .

لك أن تعيد هذا الأثر مرة ثانية ، لترى كيف ضمن أفكارًا مهمة فى التنفير من الاحتيال على السرقة ، وتعذيب الحيوان الضعيف ، ومن تحقيق وجود الجنة والنار على وجه يقطع الشك ، وهذا كله لا يترك صداه البعيد فى النفس إذا سيق مجردًا من طرافته الجديدة ، إذ سيق فى مشهد يصور صلاة الرسول وقد تأخر قليلا حين لمس لفح النار وشاهد بعض المعذبين ، ثم تقدم حين رأى الجنة وهم أن يتناول من ثمرها فبدا له ألا يفعل.

وشاهدان آخران لهذه الطرافة الجديدة فى عرض الفكرة يتراءيان فى قوله ﷺ :

عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: لا ، قالوا: تذكر ، قال: كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر ، فقال الله تعالى تجوزوا عنه» (٢) .

وفى قوله عليه الصلاة والسلام :

عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدى ، فيقولون: نعم ، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؛ فيقولون:

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٣٣٧.

(٢) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢٢٤.

نعم ، فيقول: ماذا قال عبدى فيقولون: حمدك واسترجع ، فيقول الله: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة ، وسموه بيت الحمد »[1] .

فالشاهد الأول يشير إلى روح التعامل المتسامحة بين الناس فى البيوع والمعاملات ، والشاهد الثانى يدعو إلى الصبر عند الآباء ، ولكن سياقهما الأدبى كان من الطرافة بحيث جعل فكرتى الحديثين تتغلغلان فى النفس المؤمنة إلى أبعد مدى يستطاع .

ولعلنا نكتفى بما تقدم من الأمثلة الخاصة بطرافة الفكرة؛ لنستدل على تحديد المعانى ، وتسلسلها فى الآثار النبوية ببعض الآثار .

إن تحديد المعانى من سمات المفكر المطمئن الذى يجيل النظر طويلاً فى الأشياء والخواطر ، ليقرن النظير إلى النظير ، وليجمع بين الأمور المتقاربة فى أحكام تتشابه على قدر ما بينها من الاتفاق ، وصاحب هذا التحديد الدقيق فوق إدراكه القوى ، ونظره المحيط ذو خبرة حاذقة بدخائل النفوس ، فهو فى تحديده الضابط يختصر مسافات بعيدة من الفحص اليقظ والتتبع الدائب ، ليقدم خلاصتها الموجزة مركزة فى عدة نقاط متقاربة ، فأنت حين تسمع مثلا قول الرسول ﷺ :

الخيل ثلاثة : هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر ، أما التى هى له وزر ، فرجل ربطها رياءً وفخرًا على أهل الإسلام فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولا رقابها فهى له ستر ، وأما التى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء ، إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أبوالها وأرواثها حسنات ، ولا تقطع طولها فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله عدد آثارها وأروائها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات[2] .

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٣٧٩.

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٥٥.

فمحمد ﷺ بهذا التحديد الدقيق لأنواع الخيل ، قد استعرض فى تأمل صامت أحوال ذوى الخيول ممن يناوئون بها الحق ، وممن يعملون بها لأنفسهم ، وممن يعملون بها لله ، ثم أفاض فى مزايا النوع الأخير لأنه الهدف الأول من مساق الحديث إذ هو فى سياقه النبوى دعوة صريحة إلى إعداد القوة الضاربة فى الإسلام ، وقد كانت الخيل من أعظم مظاهرها وأقواها تأثيرًا فى عصر الدعوة الإسلامية ، وأعتقد أن سامعى الحديث من الصحابة قد استعرضوا أنفسهم استعراضًا دقيقًا فى ضوء ما ذكر الرسول ، وقد فطنوا فى بصيرة مؤمنة إلى من ينطبق عليهم الوصف الأول من مجاوريهم من المنافقين أو المشركين ، وإلى من توسط فاكتفى بالستر عن الأجر ، ثم طمحت نفوسهم أن يكونوا بين من ربطوا خيولهم فى سبيل الله لأهل الإسلام ، وقد راعتهم بعد ذلك هذه الفراسة البصيرة فى استشفاف النفوس ، وهذه القدرة النافذة على التحديد والتشخيص .

وقريب من هذا الأثر الجامع المحيط قول النبى ﷺ فى أثر آخر:

عن قبيصة بن مخارق الهلالى رضى الله عنه قال: تحملت حمالة ، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال: يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا فى قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة يأكلها صاحبها سحتًا [1] .

لا يدرك قيمة التحديد الدقيق فى هذا الأثر الكريم إلا من يعلم أن المال مهوى كل طامع ، وأن النفوس قد جبلت على حبه والاستزادة منه ، حتى لتشتط فترتكب ما نهى الله عنه فى سبيله ، وكم من أكاذيب منكرة اخترعت اختراعًا لا تزاره من

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٣٤.

الكرماء« و » الأنفس الشح ، والرسول فى مكان الزعامة من المسلمين فلا ينفك يأتيه الطارقون صباحَ مساءَ سائلين راغبين ، منهم الصادق ومنهم الكاذب. ولابد أن يرسم قانونًا دقيقًا للمسألة متى تحل ومتى تحرم ، ولابد أن يستعرض أحوال عصره من احتمال المغارم لدى الرؤساء واختراع الحيل لدى الطامعين ، والركون إلى الكسل دون العمل عند من يعشقون الفراغ ثم يتسولون فى الأندية ، أن يستعرض جميع ما مر عليه من أمور الناس ، وما يحتمل أن يمر عليه من صنوف السائلين ، ثم يحدد المسألة المشروعة فى ثلاثة أحوال عند تحمل الحمالات ، وعند نزول الجوائح ، وعند الفقر المعسر ، ولكن بعض الناس ينتهزون الفرص ليستولوا على المال من غير طريقة ، فلابد من تحديد آخر لهؤلاء ، فصاحب الحمالة تحمل له المسألة حتى يصيبها ويمسك ، لا أن يطوف بالناس فيجمع ويجمع بحجة أنه تحمل بعض الحمالات ، وقد أربى ما جمعه على ما أعطاه ، وصاحب الجائحة تحل له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش لا أن ينتهزها فرصة للاستجداء المتواصل ، وصاحب الفاقة لابد أن يشهد ثلاثة من ذوى الحجا ، على فاقته حتى تحل له المسألة منعًا للادعاء المنكر ، والإلحاف المهين فى غير حاجة.. وذلك بعض ما خطه هذا الأثر الحكيم .

ومن التحديد اللافت ما يتقدم به الحديث النبوى من ذكر العدد كأن يقول رسول الله: ثلاثة من كن فيه كان منافقًا خالصًا، أو اتقوا السبع الموبقات، أو لا حسد إلا فى اثنتين ، أو سبعة يظلهم الله فى عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، إلى ما ينحو هذا النحو هو كثير فى الحديث الشريف ، وقد ألف الأصوليون أن يقولوا فى كتبهم إن العدد لا مفهوم له ، وهو قول له دلالته التشريعية دون نزاع .

ونحن هنا لا نبحث عن الدلالة التشريعية، ولكننا نبحث عن الدلالة التأثيرية، وهى المقصودة من الأسلوب الأدبى فى عالم البيان ، لأن السامع حين يسمع لأول وهلة قول الرسول : آية المنافق ثلاث ، لا ينصرف ذهنه إلى أن للمنافق أكثر من عشرين صفة يمكن إحصاؤها بسهولة ، ولكنه يتتبع الأمور الثلاثة المنصوص عليها

فى يقظة وحرص محاذرًا أن يكون على شىء منها وكأن هذه الثلاثة تسد عليه الأفق فإذا وجد منها انفلاتًا ، فقد استراح ، وإذا وقف أمام بعض أبوابها فإنه ليجتهد أن يدفعه عن وجهه ، وهذا هو التأثير الجاذب لسطوة العدد يلقى فى مفتتح الحديث ، فهو لا محالة نوع من التحديد الفنى .

أما تسلسل الفكرة ، فما أشد وضوحه فى البيان النبوى ، والمفكر المكين هو الذى تتساوق أفكاره متتابعة وكأنها ماء يطرد فى نهر مستقيم القاع ، أما من يستعصى عليه التسلسل المطرد ، فهو لاقط مترصد يجمع شاردة من هنا وواردة من هناك؛ ليملأ بها الوقت إن تحدث ويسود بها الورق إن كتب ، ولن يجد من السامع أو القارئ سوء الضيق فهو يتساءل نافرًا عن هذه المعانى يزحم بعضها بعضًا دون ترتيب ، وإذا راقت النفس فكرة ثم وليتها فكرة أخرى غير متجانسة فإن الثانية تعصف بمحاسن الأولى وتعفى عليها دون انتظار ، ولن نحتاج فى مجال الحديث عن تسلسل البيان النبوى إلى غير الاستشهاد بقوله دون تعليق؛ لأن النسق النبوى فى اطراده المتسلسل وتلاحقه المتتابع لا يحتاج إلى تعقيب. فهو من وضوحه الساطع بحيث تغمره أشعة الشمس بأمواج الضياء.. وإليكم بعض النماذج من المأثورات :

١ - عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على الجاهل كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافر» [١] .

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى ، فكأنما قرَّب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٥٧.

فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» [١] .

٣ - عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك فى ملكى شيئًا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» [٢] .

٤ - عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه ، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» .

---

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ١٩٨.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٦.

هذه بعض النماذج ، نقدمها لتسلسل الفكرة وترتيبها ، فى حديث الرسول ، ولنا بعد هذا التطواف أن نوجز ما شرحناه من خصائص الأفكار النبوية فى القوة والطرافة والتحديد والتسلسل مع الميل إلى الإيجاز المحكم ، وما كان من تكرار ينافى الإيجاز فى بعض الآثار النبوية ، فقد أوحى به الموقف الخطابى وحده وهو قليل فى غير الخطابة حتى ليكاد يعد عدًّا ، ومن هذا اشتهر محمد ﷺ بجوامع الكلم؛ إذ إن المقصود بهذه الجوامع: كل جملة قصيرة تضم معنى كبيرًا ، مثل : «إنما الأعمال بالنيات» (الدين النصيحة) ، (الضعيف أمير الركب) ، «إن من البيان لسحرًا» ، (خير الأمور أوسطها) ، (المرء مع من أحب) ، وما ينحو ذلك المنحى من كل قول قصير يرمز إلى معان تتسع لها النفس بما توحى وتشير ، ولا يعلم مزية الإيجاز فى موضعه غير من يعلم معابة الإطناب فى غير موضعه ، وإلى ذلك يشير الأستاذ أحمد حسن الزيات فى مقال له تحت عنوان: «البلاغة بين الإيجاز والإطناب» قال فيه :

«وملاك الإيجاز غزارة المعانى ووضوحها فى الذهن وطواعية الألفاظ ومرونتها فى اللسان ، وإنما يكون العى والثرثرة ومضغ الكلام من جدب القريحة أو قلة العلم أو سقم الذوق ، وقديما قالوا: «من ضاق عقله اتسع لسانه» لذلك كان الإسهاب أول ما يصاب به ناشئة الكتاب؛ لأن جهدهم القليل يضيق عن شرح الفكرة فيدورون حولها مجمجمين بالكلم الفوارغ ، والجمل الجوف إلى أن قال: «والإيجاز فى البليغ قوة وروية وجهد لأن الإيجاز غربلة ، ونخل ، وتصفية ، وتنقية ، وتصعيد ، وتركيز ، وذلك لا يتهيأ إلا بدوام النظر وطول التعهد ، وإن للكلمة الموجزة سحرًا يأخذ القلوب وشعرًا يجرى فى الشعور ، وقد قال فيها سيد البلغاء محمد بن عبد الله: «إن من البيان لسحرًا» وقال فى مقام الفخر والشكر: «أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارًا» [1] .

* * *

(١) « افتتاحية مجلة الأزهر » صفر سنة ١٣٨٤هـ.

(جـ) الصور البيانية فى حديث الرسول

حين نتحدث عن الصور البيانية فى أدب محمد ﷺ ، إنما نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوى ، جاد على أكمل تمامه وأبهى أصباغه وأورف ظلاله ، وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب فى العربية ، ولن نرسل القول دون تدليل ، فإن المتتبع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إلى النفوس من القول ، لما فطر عليه ﷺ من معرفة عناصر التأثير فى البيان ، وأوجه الجمال فى اللسان ، فجاء حديثه النبوى من البلاغة العالمية فى موضع تتطلع نحوه الأبصار ، وتتقاصر دونه الأعناق .

لقد أتعب البلاغيون أنفسهم فى تحليل الصور البيانية ، وجنح بهم حب الاستقرار إلى تفصيلات مختلفة عن التشبيه الحسى والعقلى والخيالى والمفرد والمركب والمتعدد ، وجاء النقد المعاصر ليقتضب كثيرًا من ذلك مرجعًا حقيقة التشبيه الجيد إلى إدراك ما بين الطرفين من صلة صادقة تؤثر فى النفس ، فالتشبيه الملفق من أجزاء توجد فى الخارج ، وقد جمعت بتحايل عقلى مفتعل على نحو ما قال الشاعر :

وكأن محمر الشقيق إذا ... تصوب أو تصعد

أعلام ياقوت نشرن على ... رماح من زبرجد

والتشبيه الذى أغفلت فيه مشاعر النفس ، واقتصر على مجرد تشابه المنظر البصرى من مثل قول الشاعر:

ولازوردية تزهو برونقها ... بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق هامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

والتشبيه الذى تستجاد فيه الصورة ، لدلالتها على أشياء مترفه ثمينة ، دون أن تلمس شغاف النفس بما تترك من تأثير قوى فى مثل قول ابن المعتز – على شهرته وافتتان أكثر القدماء به :

وبدا الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

كل هذه التشبيهات وعشرات تنحو نحوها ، قد فقدت مكان الاعتزاز لدى النقد المعاصر ، لأنها جعلت التشبيه مجال احتيال عقلى بعيد عن أطواء النفس ، وقد نسى أصحابها أن التشبيه يأتى ليزيد المعنى جمالاً وصقلاً يتركان تأثيرهما فى نفس ذات إحساس ، فليست مسألة التشبيه معركة ذهنية تبعث بالعقل إلى تتبع المتقاربات فى الحجوم والألوان ، لتقرن الشىء منها بالشىء الآخر ، إنما المسألة فى التشبيه مسألة نقل إحساس الأديب إلى القارئ لينفعل به نفسيًا ، ويتأثر وجدانيًا ، وقد أصبح ذلك من بدائه القول ومسلماته لدى الناقدين ، ولعل أول ناقد معاصر حمل قلمه الثائر لتصبح المفهومات البلاغية فى التشبيه هو «الأستاذ عباس محمود العقاد» إذا واجه «شوقى» بقوله عن الجزء الأول من الديوان:

«اعلم أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من بعددها، ويحصى أشكالها وألوانها ، وأنه ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول لك ما هو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع ، وإنما همهم أن يتعاطفوا ، وأن يودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه وما سمعه ، وخلاصة ما استطابه أو كرهه ، وإن كان كذلك من التشبيه أن تذكر أحمر ثم شيئين أو أشياء مثله فى احمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شىء واحد، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعه وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان؛ فإن الناس جميعًا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه

الأشكال والألوان من نفس ، وبقوة الشعور ويقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره ، كان كلامه مطربًا مؤثرًا ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه؛ لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورًا ، فالمرآة تعكس على البصر ما يرد عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه ، والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموجود وجودًا إن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان إحساسًا بوجوده ، وصفوة القول: إن المحك الذى لا يخطئ فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإذا كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس ، فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورًا حيًّا ووجدانًا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، ذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية ، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة وما إخال غيره كلامًا أشرف منه إلا بكم الحيوان الأعجم»

هذا كلام العقاد عن التشبيه ، وهو ينطبق على النثر الأدبى كما ينطبق على الشعر سواء بسواء ، لأن كليهما يسع من العاطفة مستمدًا معانيه وصوره من مدركات الحواس وانطباعات الثقافة.. ولو أردت أن تطبق قواعد التشبيه الصائبة فى النقد المعاصر على ما لدينا من أدب الرسول ، لراعك أن تجد الصورة البلاغية فى أدب محمد ﷺ مما يشرف البيان العربى فى جميع عصوره ، بل مما تتخذ نمطًا عليًّا يحتذى به عند الاقتداء لأنها فى لبابها الصميم صور حية وإبداع ملهم مطبوع لا صنعة متكلف يتفاصح ، وسبيلنا الآن أن نخصها ببعض التحليل .

نعرف أن عالم الحس هو الحقائق الماثلة التى ندركها بحواسنا ، وعالم الخيال هو هذه الصور الذهنية التى ترتسم على صفحات عقولنا وتختزن فى ذاكرتنا ، وهى التى تنشئ منها الجديد من الأشكال والمظاهر[1] وأن استعادة هذه الصور لا تكون

(١) « الأصول الفنية للأدب » ص ٩١ للأستاذ عبد الحميد حسن .

بهيئتها المختزنة دون تغيير ، وإلا ما كان للأديب فضل كبير فى الإبداع ، لأن لكل إنسان صورًا مختزنة كثيرة يستطيع أن ينقلها كما أحس بها دون جهد ، إنما الفضل كل الفضل فى إبراز هذه الصور المختزنة بعد اختيار للجيد ، ونفى للردىء ، وحذف للعناصر النافعة وإثبات للعناصر الحية ، هذه العملية الإبداعية الكبيرة هى ما يسمى بالخيال الفنى، فالخيال لدى الأديب أولاً لا يوجد من العدم، بل مما اختزن فى أعماق النفس ، ولا يأتى ثانيًا بصوره المختزنة كما هى فتتضاءل مزيته عن سواه ، بل يخضع لتنسيق فنى تراعى فيه أوجه التقارب والتشابه ، ويتوقف نجاح الأديب على حس اختياره للصور التى تجلو معانيه ، وتغمرها بالوضوح والإشراق ، فالصورة المنسقة البارعة هى التى تزيد المعانى جمالاً به يقترب البعيد ويجلى الغامض، فينتقل الشعور به إلى النفس حيًّا قويًّا ممتازًا ، وعلى قدر هذا الانتقال الحى النافذ من الكاتب إلى القارئ يكمن إبداعه وتوفيقه قوة وضعفًا وتحليقًا وانحدارًا ، وإذا كان الأمر فى الخيال الأدبى لا يكتمل بغير ذلك فلننظر إلى ما لدينا من أدب النبوة التصويرى فى ضوء هذه المسلمات .

لقد أراد محمد ﷺ أن يقرر: أن الناس يختلفون فى تلقى الهدى والعلم عن الرسول ، فمنهم من تشبع نفسه بالهداية النبوية ، فتزكى روحه وتصقل نفسه ، ثم ينفع غيره بما لديه فيفىء إليه الناس يعملون ويهتدون ، ومنهم من يحفظ العلم فينقله إلى غيره فينتفع به الناس دون أن يمس شغاف نفسه أو يلج أطواء روحه ، ومنهم – وهو موضع الذم القادح من هؤلاء الثلاثة – من أعرض ونأى فلم ينفع ولم ينتفع.. هذا الأسلوب التقريرى فى حاجة إلى صورة بيانية جامعة تزيده إيضاحًا وتأثيرًا كى يتأصل فى النفوس تأصلاً تمليه الروعة البيانية ، فلابد من هيئة جامعة تندرج فيها هذه الأنماط المختلفة ، هنا يلجأ الأديب إلى الصور المختزنة فى عقله؟ ولكن أية صورة؟ إنها التى تتطابق وتتفق اتفاقًا يوضح الحقيقة ويزيد ضياءها سطوعًا وإيمانًا ، فلابد من تنسيق وصقل واختيار ليأتى الثوب دقيقًا أنيقًا ، والماء فى

رأى أديب مما يناسب أن يشبه به العلم ، إذ هو مصدر الحياة للناس كما أن العلم حياة العقول والأرواح ، والماء ينهمر على الأرض ، فمنها ما يخصب وينبت ، ومنها ما يحفظ ، ومنها ما يبدد ، كما أن من النفوس ما ينتفع وما ينفع ولا ينتفع ، ومالا ينتفع ولا ينفع.. لقد اقتربت الصورة العامة ، ولم يبق على الأديب المبدع إلا أن يصوغها صياغة نفاذة ملهمة إذ يقول :

«عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» رواه الشيخان[1] .

هذا المثل الأدبى الرائع قد جلا المعانى الخاصة بالانتفاع بالهدى والعلم جلاء مؤثرًا ، فأضاف إلى الحقيقة الفكرية بمدلولاتها الثلاثة صورة جعلتها تختال أمام العيون فى ثوب بهيج ، ولاشك أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبيه فيزداد تأثرًا وانفعالاً بما سمع ، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققًا محللاً إذ مس أوتار قلبه مسًّا حيًّا ، وإذا بلغ الأديب بتصويره مبلغ التأثير القوى فقد أدى رسالته البيانية على أكمل ما يراد .

إنك لتبحث عن نظير لهذه الصورة النبوية فى كلام البشر فلا تجد ، ولكنك تجد مثلاً لها وأقوى منها فى قول الله عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٦٢.

مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[1] .فإن الانتفاع بالماء عند قوم وضياعه هباء عند آخرين فى الصورتين: القرآنية والنبوية معاً مما قوى به المثلان قوة مؤثرة ، والقرآن أستاذ محمد فهو يستلهمه ويستهديه .

هذه صورة نبوية رائعة نتبعها بغيرها فى مجال التشريع .

أراد رسول الله ﷺ أن يحدد الحرية الشخصية للفرد بما لا يعقبه ضرر الجماعة ، وهو مبدأ معروف فى جميع الشرائع الدولية ، فلم يقل فى أسلوب تقريرى إن الفرد مقيد بمصلحة أمته ، فلو أتى من الأشياء ما يسىء إليها كان موضع المؤاخذة. بل لجأ إلى الصورة الأدبية لتلقى ضياءها الكاشف على هذه الحقيقة. فتصور سفينة تسبح بالناس فوق الموج ، وقد أخذ كل راكب مكانه على حذر فجلس قوم فى الأعلى ، وجلس آخرون فى الأسفل ، فكان الجالسون فى الأسفل يضطرون إلى الذهاب للناحية الأخرى كى يستقوا من النهر ، وقد عدوا ذلك مشقة مرهقة ، ثم بدا لهم أن يخرقوا مكانًا فى موضعهم ليصلوا إلى الماء مباشرة ، وذلك موضع الخطر على الراكبين جميعًا ، إذ إنه سيهوى بهم لا محالة فى القاع. فلا بد أن تهب الجماعة لدرء هذا الشر ، وإلا هلكوا جميعًا. فحرية الفرد إذًا مقيدة بمصلحة الجماعة ، وعليه أن يتحمل بعض المشاق الخاصة منعًا لضرر خطير يلحق الجميع ، كم تروعك هذه الحقيقة الباهرة مصورة فى قول محمد ﷺ :

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا»[2] .

(١) سورة الرعد : ١٧ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

ومزية أخرى للتمثيل الأدبى الجيد هى أنه لا ينطبق على المعنى المراد توضيحه وحده بل يتعداه إلى أمور بعيدة عن نصه ، ويمكن أن تندرج فى فحواه ، فإذا كانت الصورة الأدبية فى حديث السفينة قد ألقت ضوءها النافذ على مشكلة الحد من الحرية الشخصية ضمانًا لسلامة المجموع ، فجعلت هذا المبدأ بما ألقت من الأشعة والظلال بمنزلة المقررات البدهية التى لا يتمارى فيها المجادلون ، فإن القارئ الناضج هو الذى يسبح بتفكيره ، فيضم إلى الصورة الفنية أمورًا أخرى يمكن أن تندرج تحتها لبعض وجوه التشابه القريب ، ومثال ذلك ما بسطه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى قوله تعليقًا على الحديث المتقدم :

«كان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف كحرية الفكر ، والغيرة والإصلاح ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا بفأسه أى بقلمه زاعمًا أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ويتولاه ، كيف أراد موجهًا لحماقته وجوها من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة جاهلاً أن القانون فى السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يحكم على الأعمال الأخرى ، بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة ، أو يمسه من قرب أو بعد بعد مادامت ملججة فى بحرها ، سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة الخرق لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة أصغر من خرق ، ليس لها إلا معنى واحد هو أوسع من قبر إلى أن قال الأستاذ الرافعى: «هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه ﷺ كلما زدته فكرًا زادك معنى وتفسيره قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قدر ما أنت معه إن وقفت على حد وقف ، وإن مددت مد ، وما أديت به تأدى»[1] .

(١) « وحى القلم » ، ج ٣ ، ص ٨ .

ولعل بعض أسباب هذه الروعة فى التصوير النبوى ترجع إلى ما تتضمنه الصورة من الإيجاز البليغ ، إذ إن هذا البيان الذى يفتح لأمثال الأستاذ الرافعى هذه الآفاق لم يذهب فيه قائله مذهب الإطناب حتى تنفرج كثرة القول عن مسائل كثيرة.. ولكنه الإيجاز بحيث لا يتجاوز كلمات معدودات أحكم محمد وضعها حيث تشع كل كلمة ببدائع الفكر وروائعه.. ولو سلك به القائل ﷺ مسلك الأسباب ما كان له هذا السطو الأخاذ.. فهو أدرى بمناحى الروعة ومثارها لدى النفوس ، لذلك نراه عليه الصلاة والسلام يوجز ويوجز ، حتى فى مجال التصوير الأدبى حيث يتوهم بعض الناس أن روعة الصورة البيانية لا تكتمل إلا بانفتاق القول واتساع الحديث.. وها نحن أولاء نرى السطر الواحد من بيان محمد يسع حشودًا ، ولدينا مع ما تقدم مثل آخر :

١ - روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل البخيل والمنفق ، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتقفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع»[١] .

٢ - روى أبو موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، والفاجر كالأرزة الصماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»[٢] .

فالشاهد الأول يتحدث عن الإنفاق ، وحب المال جبلة فى النفس فهو منها بمنزلة مكينة قابضة لا تسمح له بالانفلات ، وقد لجأ القرآن إلى التصوير البيانى فى مواضع كثيرة ليدفع هذه الأنفس الشح إلى التصدق ابتغاء مرضاة الله فوالى الأمثلة

(١) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٥.

(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٦.

التصويرية مثالاً خلف مثال من نحو : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴾[1] ، ونحو : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ ﴾[2] إلى آخر ما تعلم من كتاب الله ، وجاء محمد ليهتدى بهدى القرآن ، فيضرب المثل المعبر عن حالتى: الجواد والبخيل ، فالكريم إذا أراد النفقة والتصدق كانت نفسه راضية قريرة فهى تدفعه إلى الخير مستريحة مسرورة ، وإذ ذاك يتقبل الله معروفه فيمحو به ما أسلف من السيئات ، أما البخيل فيستمع إلى داعى الخير ما يستمع حتى إذا ألح الطرق على سمعه وهم بعض التصدق ثار عليه شحه.. فقبض يده عن المعروف ، وما أشبه الأول بمن يرتدى درعاً فضفاضة تتسع له فى تمام وطول حتى تغمر جسمه وتتجاوزه إلى أثره على الأرض فتمحوه ، وذلك كناية عن محو الآثار لأن الحسنات يذهبن السيئات.. أما الثانى فقد لزقت كل حلقة من حلقات الدرع مكانها فهو يوسعها فلا تتسع ، إن التعبير بقوله لزقت ليصور من معانى القبض والشح والكزازة شيئًا كثيرًا لا تتسع له الصفحات ، وإذا كانت الحلقات الملتصقة من حديد فما ظنك بثقلها وضيقها وأخذها بالمخانق والأوصال ، أترى تصويرًا رائعاً للمتناقضين من الكرماء والبخلاء يبلغ موضع هذا التصوير الحى فى التمثيل النبوى المبين؟

أما اختياره الخامة من الزرع للمؤمن فى الشاهد الثانى ، فما أصدقه وأدقه ، جل بذهنك فيمن تعرف من أصدقائك المبتلين ، وتذكر صديقا مؤمنًا لا يكاد ينجو من مأزق فى نفسه أو أهله أو ماله إلا ارتطم بمأزق ، فهو دائم الوقوع والاعتدال ، إن الضيق ليبلغ به أعنف مبلغ ، إذ يرى نفسه هدفًا للقدر ينوشه أنى سار ، وهو بعد ملتزم حدود دينه كبير الأمل فى ربه ، فى حين يرى جاره الفاجر يعب وينهل من

(١) سورة البقرة : ٢٦١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

المحرمات دون أن تعثر به قدم.. لاشك أنه سيقارن ويوازن وقد يغشى روحه ضباب الشك لحظات مريرة فيرتاب فى مسلكه النزيه ، فإذا تلوت عليه حديث محمد بتصويره الملهم فسيرى نفسه كمثل الخامة من الزرع تكفأ وتعتدل ، فإذا اعتدلت ذهبت بالبلاء ومحقت ما أسلف من الأوزار .

وسيبلغ البيان النبوى من نفسه مكان الرضا والاستبشار ، بل إن شعوره نحو جاره الفاجر لينقلب من الحسد إلى الرثاء إذ يراه يوشك أن يقصم كالأرزة الصماء فلا تنهض له قائمة متى شاء الله؟ أى سحر يبثه هذا البيان!

إن التمثيل الأدبى أرقى ما تعرف من صور البيان ، وللقرآن الكريم والحديث النبوى منه مالا يتعلق بغبارة متعلق ، وقد أجاد نابغة البلاغة العربية «الشيخ عبد القاهر الجرجانى» فى وصف تأثيره النفسى ، إذ خصه بفصل رائع فى أسرار البلاغة قال فى مفتتحه» [1] :

«واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية فإلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة. ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستنار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفًا ، وفسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا .

فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف وأسرح للإلف ، وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغر المواهب والمدائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذمًّا كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .

(١) « أسرار البلاغة » ، ص ٩٢ .

وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل وللغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث ، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر أن يجلى الغيابة ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفى الغليل» .

ثم مضى الشيخ يستعرض لذلك أمثلة من الشعر العربى مما قال: «البحترى وابن الرومى وأبو تمام والمتنبى وغيرهم».. فاضطر السيد «رشيد رضا» - ناشر الكتاب - أن يذكر فى هوامش الفصل أمثلة من القرآن تبلغ الغاية فى التدليل من مثل قول الله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أو : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، أو ﴿ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾، أو : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، أو : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ، أو : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، أو : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ، أو : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، وهو جهد موفق قام به صاحب المنار ليشير إلى أن كتاب الله أولى بالصدارة والاستشهاد والتمثيل .

وقد كان على السيد رحمه الله أن يذكر أمثلة أخرى من روائع الحديث النبوى ، وليس ذلك بمعجزه فى شىء ، فالرجل محدث حجة حافظ ، وهو يعلم أن ضروب التمثيل الأدبى فى البيان النبوى مما يتقاصر عنه أكابر الشعراء الذين اهتم بهم الشيخ عبد القاهر ، وقد آن لنا أن نطرف القارئ ببعض هذه الروائع عن رسول الله :

١ - مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبًا ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة[١] .

٢ - مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجَّة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر[٢] .

٣ - أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ، ما نقول ذلك يبقى من درنه قالوا: لا يبقى من درنه شيء ، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا[٣] .

٤ - مثلى ومثل ما بعثنى به الله كمثل رجل أتى قومًا ، فقال: رأيت الجيش بعينى ، فأنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة ، فصحبهم الجيش فاجتاحهم[٤] .

٥ - إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين[٥] .

٦- إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها[٦] .

---

(١) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٧.
(٢) « التاج » ، ج ١ ، ص ٣ .
(٣) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٥٥ .
(٤) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
(٥) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٦) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

٧ - إنما صاحب القرآن كصاحب الإبل المعلقة: إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت[١] .

٨ - مثل المسلمين واليهودوالنصارى ، كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً يومًا إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا له إلى نصف النهار ، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم ، فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه ، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم ، فإنما بقى من النهار شىء يسير فأبوا ، فاستأجر قومًا أن يعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من النور[٢] .

٩ - ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا ، وليس فيه شىء ، فيصبح الناس يتابعون فلا يكاد أحدهم يؤدى الأمانة ، فيقال: إن فى بنى فلان رجلاً أمينًا ، ويقال للرجل ما أعقله ، وما أظرفه ، وما أجلده ، وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان[٣] .

١٠ - إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينها ، فقال: رجل: يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر ، فسكت النبى ﷺ فقيل له: ما شأنك تكلم النبى ﷺ ولا يكلمك ، فرأينا أنه ينزل عليه الوحى قال: فمسح عنه الرحضاء ، فقال: أين السائل؟ وكأنه حمده ، فقال: لا يأتى الخير بالشر ، وإن مما

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٥٢ .
(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .
(٣) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

ينبت الربيع يقتل أو يلم ، إلا آكلة الحضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين ، وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة[1] .

هذه عشرة أحاديث تتضمن عشر صور بيانية جامعة ، ولو ذهبنا بها مذهب التحليل الأدبى على نحو قريب مما سبق لطال القول ، ولكننا نكتفى بأن نقول: بأنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس؛ فتزيده وضوحًا فى الخاطر وجلاء فى الذهن ، لتستحيل أفكاره الهادية دمًا خالصًا يترقرق فى عروق المسلم ، ونورًا يمتد فى عقله وبصره ، ونفسًا يتردد فى رئتيه ، وذلك بعض ما يفيض البيان الساحر والأدب الرفيع .

وقد يرى القارئ ، أن ما اخترته آنفًا من الآثار البيانية للرسول ، يشير إلى الصور الكلية لا الجزئية ، وهذا حق ، إذ إنى تعمدت ذلك نظرًا لأن الصورة الكلية أشق تركيبًا وأدل على المقدرة والافتتان من صورة جزئية تقع فى تشبيه مفرد بمفرد ، أو فى استعارة تصريحية أو مكنية ، ولسنا بذلك نضائل من القيمة الفنية للصور الجزئية فهى جهد أدبى له تقديره ، لأن المجاز - أيًا كان نوعه - يرتكز على أساس عكسى شاق وهو: وضع صورة أو معنى أو حالة مكان شىء آخر ، وإن من أعظم الأشياء كما قال «أرسطو»: أن تملك زمام المجاز على جه يبعث الانشراح ، فحينما تكون فى عقلنا فكرتان مختلفتان تعملان معا تحت كنف عبارة واحدة ، أو حينما ندرك شيئًا أو نحس به عن طريق شىء آخر يتسنى للأديب أن يبدع المجاز كما يريد، فالحالة الأولى تتهيأ - مثلاً - حين يرى الأديب الفتاة فى صورة قمر ، والحالة الثانية تتهيأ حين يخلع على الشجرة أو الحيوان بعض صفات الإنسان[2] ، ومن هنا كان

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٢) « الأصول الفنية للأدب » ، ص ١٠٨ .

المجاز مجالاً لاندماج فكرتين تدل عليهما كلمة واحدة لا كلمتان ، ومرد ذلك إلى: الخيال ثم إلى القدرة على الصياغة اللغوية ، فالصورة البيانية كلية أو جزئية ، تحتاج إلى جهد لا محالة ، ولكن الأديب المطبوع يسهل عليه منها ما لا يسهل على غيره ممن يتكلفون أوجه البيان على غير فطرة موهوبة ، وإذا كانت العلاقة فى التعبيرات المجازية قائمة على مدى الترابط بين الحقيقة والمجاز ، فإن هذه الروابط قد تتشابك وتتعدد وتتكدس ، فإذا وفق الأديب فى إيجاد انسجام قوى بين هذه الروابط المتشابكة بحيث تكون صورتها زاهية منسقة ، فقد بلغ التوفيق كما نرى فى الصور الكلية من البيان النبوى التى ألمعنا إليها بالتحليل ، إذ إن الصورة الواحدة تضم فى إطارها شيئًا من الصور المتناثرة ، وقد خضعت إلى نظام من التناسق يؤلف بينها ويجعل منها خطوطًا ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح ، وسمات ، وهذا بعض ما يشير إليه صاحب الأصول الفنية للأديب حين يقول :

«إن الأعمال العقلية التكوينية يمكن أن تستخدم فيها الروابط الضعيفة بين الأشياء لتحقيق الانتقال من فكرة إلى أخرى ، وقد تتشعب هذه الروابط وتسلك مسالك ملتوية ، فينشأ عن ذلك تكوينات وصور عقلية جديدة متكدسة ، وعلى قدر هذا التكديس تكون غزارة الإشارات والمجازات وقوتها الشعرية ، ولهذا يرى علماء البيان أن أقوى صور التشبيه والمجاز والاستعارة ما كان متنوعًا من متعدد سواء فى طرفى التشبيه أم فى وجه الشبه»..؟

وما يقوله علماء النقد المعاصر هو فى لبابه ما عناه فارس البلاغة العربية ، «عبد القاهر الجرجانى» حين قال: عن التمثيل ما سطرناه من قبل ، وهذا الاحتفاء البالغ حديثًا وقديمًا بالصور الكلية فى البيان.. لا يمكن أن نهمل معه ما جاء فى الحديث النبوى من الصور الجزئية الرائعة ، بل إن مما يضاعف منزلتها فى حديث رسول الله أنها سنحت عفوًا لخاطر فى كلامه العادى بين الناس ، لأنك إذا أردت أن تستعرض صورًا بيانية لشاعر أو ناثر غير رسول الله ﷺ فإنما تستعرض صورًا بيانية

من أدب بذل صاحبه جهدًا كبيرًا ، وقضى وقتًا حافلاً فى تدبيجه ، ولكن الرسول لأمر أراده الله لم ترو عنه أكثر خطبه التى يتسلسل فيها القول بعد نوع من الإعداد النفسى ، والتهيئة لما يناسب المقام فى كثير من الأحوال ، إنما رويت أحاديث قالها فى المسجد ، وفى المنزل ، وعلى قارعة الطريق ، مطبوعًا غير متكلف ، فإذا حفلت بعد ذلك بأطايب الصور من كلية وجزئية فلله ما أروع وما أبدع!

لنا أن نشير إلى بعض التشبيهات من الصور الجزئية فى أدب الرسول بمثل قوله:

١- الناس كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية .

٢- الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

٣- المؤمن هين لين ، كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن استنيخ على صخرة استناخ .

٤- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا .

٥- المرأة كالضلع العوجاء ، إن قومتها كسرتها ، وإن داريتها استمتعت بها .

٦- لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا.

٧- المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبى زور .

٨- أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره .

٩- مثل المؤمن كالسنبلة تميل أحيانًا وتعتدل أحيانًا .

١٠- عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونوا يول عليكم .

وهذه الأحاديث العشرة مما اختاره الأستاذ «على الجندى» فى ص ٢٧ من الجزء الثانى من كتابه «فن التشبيه» ، وإليه يرجع فى استقاء مصادرها من الكتب الصحاح.

أما نماذج الاستعارة والكناية فنضرب بها الأمثلة مما اختاره «الشريف الرضى» فى المجازات النبوية وكلها روائع أخاذة لا يغنى بعضها عن كلها ، ولكننا ننقل منها عشرة أحاديث أخرى دون اختيار متعمد؛ إذ نسطر بعض ما وقعت عليه العين فى القراءة الأولى دون ترجح ومنه ما يلى :

١- اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع .

٢- إنى ممسك بحجزكم ، هلموا عن النار وتغلبوننى ، تقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، وأوشك أن أرسل حجزكم .

٣- لا يلقى الله عبد لم يشرك بالله شيئًا ولم يتند بدم حرام إلا دخل من أى أبواب الجنة شاء .

٤- خير المال: عين ساهرة لعين نائمة .

٥- يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها الليل والنهار .

٦- عائد المريض على مخارف الجنة .

٧- ليس أحد يدخل الجنة بعمله ، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته .

٨- اعلموا أن الجنة تحت البارقة .

٩- اللهم ، إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل .

١٠- من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده ومرة قلبه ونخيلة صدره فليطعمه ما استطاع.

تلك نماذج للصورة الجزئية من البيان المحمدى ، يكتمل بها الحديث عن مبين ملهم واتته الفصاحة ، فكان سيد البلغاء .

* * *

obeikandl.com

(د) ناحية التعبير من الحديث

نفى الله عز وجل عن رسوله ﷺ التكلف حين قال على لسانه : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[1] لأن التكلف فى كل أمر يحبط تأثيره ، ويلقى على صاحبه ظلاً من الكراهية والاستثقال ، وأظهر ما يكون التكلف فى قول يقال؛ لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل ، ومهما كان قوله صائبًا صحيحًا ، فإن مسحة التكلف تلقى عليه ظلالاً بغيضة تجعله أشبه بالقول المخطئ ، وما هو به ، لأن الروح التى يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة ، بل تعانى من آصار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة. لذلك كان بيان محمد ﷺ سهل المأخذ قريب المتناول ، موجز العبارة لو عده العاد فى مجلس من مجالسه لأحصاه. ومن هنا كره الرسول الثرثرة ونهى عن التشدق لما يعرفه من مجانبة الثرثارين والمتشدقين للنهج الأصوب ، ولما يعلم عن نفوس السامعين إذ تزور عن الافتعال والتفاصح. وتلك فطرة فطر الله عليها الكثرة الكاثرة من الناس ، ، وقد سبق أن أشرنا فى بعض الفصول إلى قول عائشة رضى الله عنها : «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصل يحفظه من جلس إليه» ، وفى رواية أخرى «كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه » . وإذا عرف أن محمدًا فى صميم رسالته مبلغ يأمر الشاهد أن ينقل عنه إلى الغائب ، فإن هذا مما يدعوه إلى الإيضاح الكاشف فى القول واليسر الموجز فى الحديث كيلا ينقل عنه

(١) سورة ص : الآيات ٨٦ : ٨٨ .

القول على غير ما أراد ، ومن هنا كان الرسول الأعظم حسن الترتيل سهل العبارة ، لا يتكلم فى غير حاجة ، بل ربما أعاد الحديث فى المجلس الواحد ليرتسم فى الأسماع كما جاء .

أول صفات التعبير لديه: سهولة المأخذ وقرب المتنازل ، فإذا أتى السامع حديثه ﷺ ظل لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته ، فإذا أراد أن يأتى بمثله طاش وحار. وليس اليسير السهل مما يمل على التكرار ، ولكنه يتردد ويظل محتفظا بجدته الطريفة ، إذ إن وراءه فكرًا دقيقًا يزن الرأى السديد ميزانًا تامًّا ثم يعرضه فى يسر قريب المتناول .

يقول ﷺ : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». كم سمعنا هذا الحديث وكم تلوناه ، أيجوز أن نقول إنه يفقد رونقه بالتكرار؟ لقد جاء سهلاً سلساً قريب المأخذ يفهمه كل إنسان مهما كانت درجة عقله من التفكير. ومع هذه السهولة اليسيرة فإن صياغته الأدبية ترمز إلى عقل دقيق خبر أحوال الناس وعرف اختلافهم فى القدرات والأعمال ، فمنهم من يستطيع مواجهة الباطل بقوته ، ومنهم من تعوزه القوة دون الكلمة ، ومنهم من لا يستطيع قوة أو كلاماً ، ولكل وظيفته الخاصة أمام المنكر ، فهل كانت سهولة التعبير مانعة سداد الرأى وبعد النظر ، وصحة التقسيم .

أتدرون لماذا اتسم أدب محمد بالإيضاح والإشراق؟ إن فريقا من أساتذة النقد يقولون: إن المعانى الغامضة التى يفاجئنا بها نفر من الكاتبين فى مؤلفاتهم العويصة لا تدل على العمق والقوة قدر ما تدل على العجز والعمى ، لأن المعنى إذا كان واضحًا فى نفس الكاتب ، بارز الجوانب فى تصوره انقاد له اللفظ انقيادًا ، فجاءت الألفاظ سلسة طائعة تصور ما بنفسه من الأفكار الواضحة التى يراها دون حجاب، أما إذا كان المعنى لا يزال غامضًا فى تفكيره لم تتحدد معالمه على وجه ساطع فإنه يتعثر فى التعبير عنه يطلب اللفظ الملائم فلا يوافى ، فيلجأ إلى عبارات

غامضة كمعانيه المبهمة يسطرها فى جهد ومشقة ، فإذا طالعها القارئ ، عجز عن اجتلائها وتلبث لا يستطيع الوصول ، ودونه ضباب غائم لم يتضح فى نفس قائله ، فأنى له أن يتضح لدى القارئين ، فإذا أشرق بيان محمد فى نفوس قارئيه وسامعيه فإنما تشرق معانيه الواضحة ، وتفكيره الساطع ، ورأيه الجهير .

إذًا ، فوضوح التركيب ويسر مأخذه وسهولة تناوله ، أقرب الخصائص العامة إلى تعبير محمد ، وإذا كانت موسيقى النثر الأدبى من أوضح الدلائل الفنية على جودته ، فإننا سنشير إليها ببعض القول حتى يتسنى لنا أن ننتقل إلى التطبيق عليها من البيان الشريف .

يظن بعض الناس أن الموسيقى النثرية لا تكون إلا بالمحسنات البديعية من سجع وازدواج وجناس ، وهذا بعض الحق لا كله ، لأن الموسيقى النثرية قد تكون بهذه المحسنات إذا أتت عن طبع وصدرت عن أصالة وقد تكون بغيرها ، إذا رتب الكلام ترتيبًا نفسيًّا يوافق اهتزاز المشاعر ، وتموجات النفس بأن يعبر الأديب عن خواطر تطرد وتتدفق منسجمة فى نسق خاص ، فكأن سلكاً خافيًا ينظمها نظم الدر، وهذا ما يعرف بالموسيقى الخفية ، وأماراتها أن تستمع للأثر الأدبى يتلى عليك، ومن ورائه أذنك المرهفة تصغى لنظم قد تماسك والتحم معنى ومبنى ، بمعنى أن القارئ لو سكت فجأة دون إتمام مقاله الأدبى لشعرت أن نشازاً حدث فانبترت الموسيقى انبتارًا قاطعًا ، فإذا أتم الحديث لغايته فقد بلغ بك الطرب النفسى أقصاه ، إذ رويت ظمأك بما ينقع الغليل ، ومن المعلوم أن تسبق الألفاظ تنسيقًا فنيًّا يكسبها معانى جديدة ليست لهذه الألفاظ إذا كتبت كما يتفق دون تنسيق، كما أنه يجعل القارئ حريصًا على تتبع المعنى ومستشرفًا له لأن الموسيقى الخفية التى تطرد وراء الألفاظ تبنىء عن مدى انتهائها وترسم فى نفس السامع أبعادًا يطمح إليها فهو يستقبل ما يأتى من القول استقبال المستشرق المترقب ، ولك أن تلمس تطبيق ذلك فى نحو قول رسول الله ﷺ :

«عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1] ، فأنت إذا نظرت إلى هندسة هذا الحديث تجده صيغ صياغة فنية بحيث لو تقدمت جملة على جملة لاختل استواؤه الأدبى ، وهو مع ذلك يترقى بك من معنى إلى معنى فى سلم تنتظره وتحس كمال إتقانه ، لأنه يصعد بالمعانى وفق ما يتصور الذهن وما يناسب الإحساس ، ومن هنا كانت الموسيقى الخفية وليدة هذا التنسيق المحكم للمعانى فى معرض دقيق من الألفاظ .

جاء فى الجزء الثانى من كتاب «النقد والبلاغة» ما نصه[2] :

«الموسيقى النثرية ليست حركة لفظة ، وإنما هى كالموسيقى الشعرية صورة حركة نفسى أو هى ترجمة صوتية عن تجربة للكاتب من شأنها أن تعين اللغة والكلمات على أداء المضمون الروحى للكاتب ، وبعبارة أخرى أن تعبر الألفاظ عن المعانى بذواتها ، فإذا نسقت هذه الألفاظ تنسيقًا خاصًّا اكتسبت من موسيقاها معانى جديدة ، وهذا هو الذى يقصده البلاغيون من ألفاظ العذوبة والرقة والجزالة والفخامة ، والطلاوة والسماحة التى تفصح عن موسيقى الأدب وأثرها فى نفوسهم.

ومن الخطأ « أن تصبح الموسيقى أداة فاعلة يوجه بها الكاتب معانيه توجيهًا واعيًا ، فإن الموسيقى حينئذ تستحيل إلى ضريبة مفروضة كالبديع الذى التزمه بعض الكتاب والشعراء لتوهمهم أنه قدر ضرورى لعلاج الكلام وجماله ، وليست الموسيقى فى النثر دائمًا رهينة السجع والازدواج ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكنها

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٥٦.

(٢) ص ١٥ للدكتور محمد مهدى علام وزميليه .

فن أخفى من ذلك. فمن الصحيح أن الكاتب قد يعتمد على توازن بين العبارات لكن هذا التوازن ليس مطلبًا أساسيًّا ، وربما كان التعبير عن حركة عاطفية قوية لا تستلزمه » .

هذا القول فى صميمه يعطينا مفتاحًا صادقًا لما يراد بالموسيقى النثرية ، فهو يبعد عنها كل مفتعل من المحسنات ، ويقرب إليها ما يترجم عن تجربة الأديب التى تحمل للسياق أشعة وظلالاً توحى بها الكلمات إذا اطردت على نسق خاص ، وتتجرد عنها إذا جانبت هذا النسق ، كما أن الموسيقى النثرية ليست رهينة السجع والازدواج إذا أحسن استخدامها ، فيحدثان من الموسيقى ما ترتاح له النفس ، وقد لا يعتمد على شىء منهما ويجىء أسلوبه مليئًا بالموسيقى الخفية؛ لأنه يصور حركة نفسية قوية .

وسبيلنا الآن أن نضرب الأمثلة من بيان الرسول لما نشأت فيه الموسيقى النثرية من اطراد النسق الفنى فى تدبيج المعانى وفق الحركات النفسية ، ولما نشأت فيه الموسيقى النثرية من اصطناع المطبوع غير المتكلف من المحسنات .

١- فمن الأول ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل: «أبى يغترون أم علىّ يجترئون ، فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيران» [1] .

٢- ومنه ما روى عن رسول الله قال: أتانى الليلة آتيان ، فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة،

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢١٥ .

قالا لى : هذه جنة عدن ، وهذا منزلك أما القوم الذين كان شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم[1] .

٣- يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ، ما شأنك ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: «كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

هذه ثلاثة أمثلة لما تتضمن الموسيقى الخفية من نثر الرسول. تقرأ المثال الأول فترى الانسجام فى تأليف ألفاظه ، رجال يختلون الدنيا ، ويلبسون جلود الضأن ألسنتهم أحلى من السكر ، قلوبهم قلوب الذئاب يبكتهم الله ، فيقول: أبى يغترون أم علىَّ يجترئون ، ألا يحس القارئ أنه يسير مع الحديث فى طريق منسجم لا ارتفاع ولا انخفاض ، ثم ألا يرى لكل كلمة إيحاءً خاصًّا تجيش به المشاعر وتهتز ، هذا أثر الموسيقى الخفية ، والحديث الثانى أليس فى تكامله وانسجامه يكون مشهدًا من قصة تقع أحداثها فى مدينة بنيت من ذهب وفضة ، وقد قسم الناس شطرين على شفتى نهر.. ثم نزل إليه بعضهم فعاد أقبحهم جمالاً ، هل تستطيع أن تقطع الحديث قبل أن تتمه.. لو فعلت لانبترت موسيقاه الخفية التى اتصلت فى سلك مستتر لتصل ما بين البدء والختام .

والحديث الثالث يتضمن مشهدًا مؤثرًا لرجل يدور يوم القيامة بأمعائه كما يدور الحمار برحاه ، وكان عند الناس وجيهًا فى الدنيا فأقبلوا يسألون عن مصدر بلواه ، فعلموا أنه كان ينهى عن المنكر ويأتيه ويأمر بالمعروف ولا يفعله . أليست كلمات الحديث مترابطة يشد بعضها بعضًا ، وبينها من التماسك مالا يعصف به أقوى الزعازع ، هذا الترابط المتماسك المنسجم لفظًا ومشهدًا وحوارًا هو ما تتدفق فيه الموسيقى الخفية فتبعث تأثيرها فى النفس كأعنف ما يكون التأثر .

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١١ .

نستطيع أن نترك اللون الأول مما انبعثت فيه الموسيقى النثرية من اطراد النسق الفنى فى تصوير المعانى ، وفق الحركات النفسية إلى اللون الثانى ، مما نشأت فيه الموسيقى من ازدواج وسجع وبعض المحسنات .

لقد أصبح من نافلة القول أن نذكر أن التكلف فى اصطناع البديع قد هوى بالأدب إلى أحط الدركات فى عصور الانحطاط يوم كان أدباء العصر المملوكى ومن شابههم ، يجعلون رسائلهم الأدبية تطبيقات بلاغية للسجع والطباق والتورية والجناس. وقد ذهب الزمن بأكثر ما سطر هؤلاء ، ولم يبق من أدب البديع إلا ما تحدر عن طبع رائق ، ونبع عن ذوق سليم ، وما نتذكره من أدب النبوة فى ذلك هو أرقى ما سمح به الذهن البشرى من إبداع ، ومن المنتظر أن يكون أدب الرسول مما اتجه إلى اللون البديعى قليلاً إذا قيس بأدبه المترسل ، لأن الذى يكثر من البديع أديب يتعمده ويترصد له الطرق.. وما هكذا كان الرسول ، إذ إن البديع كان يسنح على لسانه فطريًّا عفويًّا دون ارتصاد. وأكثر ما جاءه فى ذلك ما كان من الازدواج ، وأقله ما كان من السجع أو المطابقة والجناس. والازدواج فى أحاديث الرسول تنسيق للمعانى قبل أن يكون تنضيدًا للألفاظ ، بحيث يشعر القارئ ، أنه يترقى من فكرة إلى فكرة ، لا أنه يدور فى فلك لفظى يتعمد فيه القائل إظهار البراعة والإبداع، ونضرب له الأمثلة بهذه الآثار النبوية :

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل[1] .

٢- عن أبى هريرة عن رسول الله قال على لسان ربه: ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، وإن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت ، وأنا أكره مساءلته[1] .

٣- عن أبى هريرة عن رسول الله قال: «ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأ أو معاذا فيه فليعذ به»[2] فالازدواج فى الأحاديث الثلاثة أوضح من أن يدل عليه. ومازلت أقول إنه تنسيق للمعانى قبل أن يكون تنضيدًا للألفاظ بحيث يشعر القارئ أنه يترقى من فكرة لا أنه يدور فى مجال لفظى يتعمد فيه القائل إظهار البراعة والإبداع .

أما السجع فى البيان النبوى فما أكثر ما قيل فيه ، لقد وردت عن رسول الله آثار بيانية تتضمن السجع ، وكان على النقاد أن يمروا بها دون جدال يحتدم ، لأن السجع فى البيان النبوى مما أوحته الفطرة وتطلبه الموقف ، ولكن السجع نفسه كان محور نقاش بين محبذ له ومعارض ، فتطلب الأمر أن يكون رأى الرسول فى السجع مجال نقاش بين المحبذين والمعارضين ، فالمحبذ يستشهد ببعض الآثار النبوية المسجوعة ، والمعارض يستند إلى أقوال نبوية ربما أخذ منها ما ينقص الأسجاع ، وهكذا دارت المعركة حول الرأى النبوى فى الأسجاع بين الناقدين .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن تكون دية الجنين غرة عبد أو أمة ، فقال بعض السامعين: أأدى من لا شرب ولا أكل. ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل. فقال له الرسول منكرًا: «أسجعا كسجع الكهان» أي: أتتبع سجعًا كسجع الكهان ، وفهم القول لدى بعض الناس على كراهية السجع فانبرى النقاد لتخريج الحديث النبوى كل بما يعنّ له من التخريج » . وإنما أنكر النبى ﷺ ذلك لأنه (الرجل) أتى

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢١٩ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

بكلامه مسجوعًا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان ، وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ، ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه بل وقد أتى فى الحديث: «مثل ويقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل أو لبس فأبلى أو أعطى فأمضى» .

(فقدامة بن جعفر) فى نقد النثر[1] يقول: تعليقًا على الحديث المتقدم[2] أتى بالسجع فى جميع كلامه فأبان عن تكلف ، ولو أنه تخفف من بعضه فى عبارته له لحق سجعه الاستكراه ولكن (ضياء الدين بن الأثير)، يرى أن سجع الرجل حسن لا بأس به ، وأن المنهى عنه ليس السجع وإنما هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن ، وقد فصل ذلك حين قال :

«لو كره النبى ﷺ السجع مطلقًا لقال: أسجعا ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان؟ فلما قال: أسجعًا كسجع الكهّان؟! صار المعنى معلقًا على أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه ، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهّان لا غير ، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، وهو ﷺ قد نطق به فى كثير من كلامه حتى إنه غير الكلمة عن وجهتها اتباعًا لها بأخواتها من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام :

«أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة» وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من ألم فهو ملم ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: ارجعن مأزورات غير مأجورات» طلبًا للتوازن والسجع ، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع[3] .

---

(١) « نقد النثر » ، ص ٩٤ المنسوب لقدامة ، وقد ترددت نسبته لسواه بمجلة المجتمع العلمى بدمشق ، عن بحث جيد نشره الدكتور على حسن عبد القادر ، وارتضاه الدكتور شوقى ضيف فى كتابه «البلاغة تطور وتاريخ» .

(٢) حديث (دية الجنين) .

(٣) « المثل الثائر » ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

إلى أن قال ابن الأثير :

«فالسجع إذًا ليس بمنهى عنه ، وإنما المنهى عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن ، فقال رسول الله ﷺ : أسجع الكهان؟ أي: أحكما كحكم الكهان؟ ، وإلا فالسجع الذى أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال : « أأدى من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ، وهذا كلام حسن من حيث السجع ، وليس بمنكر لنفسه ، وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة»[1] .

وقول ابن الأثير الأخير: «فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة» غريب عجيب ، لأن كاهنًا مالم يمتنع عن ذلك فيما تعلم ، ولعله أراد الساجع فسبق قلمه إلى غير ما يريد ، أما أن سجع المعترض حسن لا بأس به ، فهذا ما تفرد به ابن الأثير؛ لأننا نحس مع «قدامة بن جعفر» ثقل العبارة الأخيرة بالقياس إلى السابقتين، ومن أجلها كان الكلام شبيهًا بسجع الكهان لدى الرسول ، فالأولى أن يقال: إن المكروه هو السجع المتكلف ، وإليه اتجه الإنكار النبوى ، أما الحكم فباطل من أساسه لأنه صدر فى اعتراض سامع غير مسئول .

وقد استشهد (أبو هلال العسكرى) بآثار مسجوعة من البيان النبوى ، وتابعه (ابن الأثير) فمما قاله أبو هلال فى ذلك :

«وكيف يذمه الرسول» ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف ، لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه. وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه الصلاة والسلام ، فمن ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسط قال: حدثنا محمد بن خالد بن عبد الله أبو شهاب عن عوف عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة انجفل الناس قبله ، فقيل: قدم رسول الله ، فجئت فى الناس لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت فيه أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

تكلم به أن قال: أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام[1] .

فالسجع كثير فى البيان النبوى وهو قريب المأخذ صادق الطبع ، ومثله ما ورد من ألوان المحسنات الأخرى كالمطابقة والتجنيس ، وقد استشهد أبو هلال العسكرى للنوع الأول بقول الرسول مخاطبًا الأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع» وقوله ﷺ : «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» ، وقوله: «إياكم والمشادة فإنها تميت الغرة وتحيى العرة»[2] كما استشهد للنوع الثانى بقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وقوله عصية عصت الله ، وغفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله[3] ، وفى كتب الأدب شذرات كثيرة من قوله عليه الصلاة والسلام تريك سماحة البديع ودماثته ، وتنزى به عن كل مستكره بغيض ، سجعًا كان أو ازدواجًا أو مطابقة وتجنيسًا ، وأكثرها جاء فى حديثه العادى لم يترصده فى موقف كما نسمع نحن الآن فى الطريق عبارات ذكية لبعض النابهين من المتكلمين لم يتعمدوا مواقع الحسن فيها ، إنما انطلقت بها ألسنتهم كما تنطلق لهوات البلابل بالتغريد .

وإذا كنا قد قصرنا هذا الفصل على الناحية التعبيرية فى بيان الرسول ، فلابد من التعرض إلى ما روى من حديثه ﷺ من الغريب ، إذ إنه يناقض ما اتسم به أكثر التعبير النبوى من وضوح اللفظ ، وقرب المأخذ ، وسهولة المتناول لفظًا وتركيبًا ، فكيف وجد هذا ضرب من العويص فى كلام أفصح مبين؟

من المسلم به أن اللغة كائن حى ينمو ويتجدد بتطور الزمان وتراميه ، فقد تستعمل كلمات ذائعة فى عصر متقدم ، ثم تمضى الأيام عليها دون أن تجد لها ذيوعاً فى عصر تال ، فيخيل لمن يقرؤها فى العصر الأخير ، أنها غريبة تكلفها القائل ،

(١) كتاب « الصناعتين » ، ص ٢٦١ .

(٢) « الصناعتين » ، ص ٣٠٩ .

(٣) « الصناعتين » ، ص ٣٢٣ .

ولو تأمل لعرف أنها غمضت بتغير العصر ، فانطفأت بعد إشراق ، ولو كانت لدينا معاجم تتبع تطور الكلمات من زمان إلى زمان ، لعرفنا كيف ماتت مئات الكلمات فى عصر واستحدثت مئات أخرى فى عصر آخر ، وأكثر ما نشاهد من الغريب فى حديث الرسول كان مأنوسًا فى عصره ، لأنه لا يتكلف ولا يتعمل ، وقد نهى عن التشدق والتفاصح ، فأحرى به ألا يأتى بالغامض العويص ، وقد كان اهتمام العلماء عظيمًا بما ورد من الغريب عن رسول الله فأفردوا له المعاجم ، وكتب الخطابى ، والزمخشرى ، وابن الأثير فى غريب الحديث مؤلفات جامعة نقرؤها الآن فنقدر لهؤلاء الأماثل إخلاص المجاهد وحرص الأمين. على أن مما نفع الله به الناس فى بيان رسول الله أن الكلمة الغريبة فى الحديث الشريف كثيرًا ما تفهم من السياق ؛ بحيث يستطيع قارئ العصور المتأخرة أن يصل إلى مدلولها بجهد قريب ، وليس معنى ذلك أن كل ما ورد من الغريب فى حديث محمد كان مأنوسًا فى عصره ، لدى جميع الناس ، إذ إن الأديب المكين قد يضطر إلى استعمال لفظ خاص مهما غمض لدلالته وحده على ما يريد من معنى ، ومن تمرس البيان يعلم أن لكل لفظ من معجم الكاتب مكانة خاصة فى نفسه ودلالة خاصة توجب عليه أن يلتزمه فى وضع معين ليحمل إلى الناس ما يريد أن يقول ، وتلك حقيقة أشار إليها جهابذة النقد الحديث وعبّر عنها (هـ . ب تشارلتن) حين قال فى كتابه: «فنون الأدب» :

«يلجأ الشعراء أحيانًا إلى اللفظ الغريب للزيادة من قوة التأثير ، ولا سيما إذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس فى الحياة الجارية ، فإذا رأيتهم يطلقون على الأشياء غير أسمائها ، فاعلم أنهم لا يصنعون ذلك عبثًا ، ولو أرادوا الأسماء المعروفة للأشياء لأطلقوها ، إذ يجب أن يكون الشاعر صادقًا فى التعبير عن شعوره، فإذا أراد شيئاً مألوفًا فليطلق عليه اسمًا مألوفًا ، أما إذا أراد صورة فيها شئ من الغرابة لأنه أحس فى نفسه أنها غريبة ، فيجوز أن يلجأ إلى اللفظ الغريب المبهم»[1] .

(١) « فنون الأدب » ، ص ١١ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود .

والناثر مماثل للشاعر فى هذا الوضع ، لا سيما إذا كان الناثر يعبر دائمًا عن الجديد غير المألوف ، وقد كانت أفكار محمد ﷺ من الجدة والطرافة والابتكار بحيث كان كل حديث من كلامه عليه الصلاة والسلام فتحًا لأفق جديد من التفكير ، فإذا جاء لفظ غريب يكمل به المعنى فى رأيه ، فقد جاء فى موضعه ، وهو فى مكانه أصيل دقيق .

كل هذا يقال عن الغريب الذى يتناثر تناثرًا فى قول الرسول على أبعاد تطول؛ إذ إن مثل هذه الألفاظ الغريبة لا تخرج عن حالتين ، إما أنها كانت مفهومة مألوفة فى العصر النبوى ، ثم غمضت من بعد فلا مجال للحكم عليها بالغرابة من غير المعاصرين ، وإما أنها كانت غريبة ، وجاء بها القائل لتسد مسدًّا لا تفى به الكلمة المأنوسة. وهنا تكون الغرابة على ندرتها القليلة مما يحمد؛ لأنها فتح جديد للفظ جديد يأخذ طريقه كى يسير ، وكل ذلك نادر ، نادر إذا قيس بما نتداوله من أدب محمد وجله مشرق أنيس .

وهناك ضرب ثالث من ضروب الغرابة غير هذا وذاك ، سيق إليه الرسول سوقًا واضطر إليه اضطرارًا ، وهو ما تحدث به محمد ﷺ أو كتب به رسائله وعهوده إلى القبائل النائية فى بطن الجزيرة ، ممن لا ينطقون بلغة قريش ، إذ إن لهم معجمهم الخاص مؤلفًا من كلمات لا يتداولها المكيون أو المدنيون ومن حولهم من الأعراب ، وهنا تظهر القدرة الكامنة فى بيان الرسول ، إذ يحيط علمًا بألسنة أناس لم يكتب له عليه السلام أن يشافههم أو يشافهوه ، وقد علم الناس جميعًا أنه لم يرحل إلى مطارحهم النازحة يومًا فيعى من ألفاظهم لا القليل ولا الكثير.. ومن هنا كان موضع العجب من أصحابه إذ يرونه يفهم عن الغرباء مالا يفهمون ، ويحادثهم بما لا يستطيعون أن يقولوه ، حتى قال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد: يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال عليه السلام: «أدبنى ربى ، فأحسن تأديبى»[1] .

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٥٠ للرافعى .

ونستطيع أن نمثل بعض ذلك بما كتبه ﷺ (لوائل بن حجر الكندى) أحد أقيال حضرموت ومنه :

«إلى الأقيال العياهلة والأرواع المشابيب ..

وفيه فى التبعة شاة لا مفورة الأليط ، ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة ، وفى السيوب الخمس ، ومن زنى ممن بكر فاصفعوه مائة ، واستوفضوه عامًا ، ومن زنى مم ثيب فضرحوه فالأضاميم ولا توصيم فى الدين ، ولا غمة فى فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال» .

قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعى[1] فى هامش كتابه: وتفسير هذا الكتاب على نسق ألفاظه ما يأتى :

الأقيال: جمع قيل وهو: الملك من ملوك حمير وحضرموت ، العياهلة: المقرون على ملكهم فلم يزالوا عنه ، والأرواع: الذين يروعون بالهيبة والجمال ، والمشابيب: جمع مشبوب وهو الجميل الزاهر اللون ، والتيعة؛ أربعون شاة تطلق على ما تجب فيه الصدقة من الحيوان ، والمفورة الأليط: المسترخية الجلود ، والضناك الموثقة الخلق السمينة يريد أن شاة الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم بل تكون وسطًا، وهو المراد بقوله: وأنطوا الثبجة: أى أعطوا بلغتهم إذ يبدلون العين نونا ، والثبجة الوسط ، ومنه ثبج البحر ، والسيوب: جمع سيب وهو العطية ، والمراد به الركاز وهو دفين الجاهلية ، ومم بكر وممن ثيب أى من بكر ومن ثيب وهى لغتهم فى إبدال النون ميما ، والصقع: الضرب ، والاستيفاض : النفى والتغريب ، والأضاميم: الحجارة الصغار ، والتوصيم الفترة والتوانى ، ويترفل: يترأس .

وفى «المثل الثائر» لابن الأثير ص ١٥٨ وما بعدها من الجزء الأول حديث (طهقة بن أبى زهير النهدي) حين قدم على رأس وفد قبيلته من غورى تهامة إلى

(١) « الإعجاز » ، ص ٣٥٢.

رسول الله ﷺ : وكله غريب معضل كهذا الذى سبق المثال به من كتاب محمد ﷺ ، وقد أعقبه الرسول برد نحا فيه منحاه من الغريب ليفهم بنو نهد ما يقول ، ولا نحب أن نشق على قارئ القرن العشرين بعويصة الدقيق ، ولكننا نذكر ما قاله ابن الأثير تعقيبًا عليه ولنا فيه مقال :

قال صاحب المثل الثائر[1] «وفصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابًا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث وما جرى مجراه ، على أنه كان فى زمنه متداولاً بين العرب ، ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيرًا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح» ، وموضع النظر فى كلام (ابن الأثير) أنه زعم أن الغريب الذى رد به الرسول على (طهفة النهدى) كان متداولاً فى زمنه ، إذ لو كان الأمر كذلك ما قال على بن أبى طالب حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد : نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، وعلى كرم الله وجهه هو البليغ الثانى فى العربية بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه فكيف يكون الغريب متداولاً ، ولا يفهمه على ، ثم إذا تقاصر عن إدراكه أمير المؤمنين فما ظنك بسواه؟ الحق أن ابن الأثير قد أخطأ فى زعمه هذا أما الذى أصاب شاكلة الصواب فهو الأستاذ مصطفى صادق حين قال فى حديثه عن الغريب فى «أدب النبوة»[2] .

«ومن ذلك كتبه التى كان يمليها ويبعث بها إلى القبائل يخاطبهم فيها بلحونهم، ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم فيما يريد أن يلقيه عليهم ، وهى خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم لا تجوز فى غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القريشية ، فما تدرى أى ذلك أعجب؟ أن ينفرد النبى ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك فى لسانه عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية ، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا فى

(١) « الإعجاز » ، ص ٣٥٢.

(٢) « المثل الثائر » ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها ، وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم فى أرضهم ، وحين يتوافدون إليهم فى موسم الحج ، وهم مع ذلك لا يعلمون من الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يديرونه فى ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشئون عليه من السماع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه ﷺ باب على حده كما يؤخذ كل ذلك من قول على »[1] ... هل لنا بعد أن أوضحنا الرأى فيما اصطبغ بحلية بديعية مطبوعة من أدب رسول الله ، وفيما جاء من الغريب فى حديثه ، أن نقول إن الطابع العام للتعبير النبوى هو الوضوح وقرب المتناول وروعة الإيحاء مع التناسق الموسيقى المطبوع ، أما ما نحا منحى الغرابة فقد وافق مقتضى الحال فى إغرابه ، فدل بهذه الموافقة على مواءمته الدقيقة لأشهر التعريفات العلمية لدى البلاغيين .

* * *

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٥١ .